

الفصل الثالث

في طباء العرب

نبذة اولى

في منشأ الطب عند العرب

كانت العرب قبائل منفرقةً منتشرةً في شبه الجزيرة العربية تشتمد في معاشها على الانعام فتضرب في اكناف البادية طلباً لمواقع الفيث واتجاعاً للكلاء . وكانت كل قبيلةٍ كثير عديدها او قلةً مستقلةً بأمرها يجري افرادها على الفطرة السليمة في معاملة بعضهم البعض وينقادون لمشائخهم كما ينقاد الابناء الاباء . وكان دأبهم الغزو يتفاخرون به ويثارون بعضهم بعضاً فلم تنفك العداوة بينهم حتى جاء الاسلام فجمع شتيتهم وألف بين قلوبهم فصاروا أمةً اندفعت كالسيل المنهمر على مدن سوريا فاجتاحتها وتماكتها وتقدمت الى بلاد فارس من جهة اسيا والى مصر من جهة افريقيا ثم دخلت أوروبا وتماكت اسبانيا ولم تصدّها جبال البرانس^١ عن التقدم حتى

هكذا كتبها المورخون من العرب Pyrénées (1)

راجع تفح الطيب

لا كما يكتبها المترجمون الآن

وقف في طريقها كارل مارتل في سهل بواتيبي^٢ من فرنسا كما وقف سور الصين في سبيلها من جهة آسيا وقد استولت في الزمن القصير على ممالك القياصرة والاكاسرة ودخلت في حوزتها جميع المدن القديمة والامصار العظيمة الواقعة في اطراف المعمور من شواطئ بحر الظلمات^٣ الى شواطئ الاوقيانوس الهندي ومن بحر الروم الى مجاهل افريقيا . وكل مملكة افتحتها رسخ قدمها فيها ودان اهلها لها واعتنقوا دينها الا الذين استامنوا ودفعوا الجزية عن يد فانتشرت اللغة العربية الى اطراف المعمور وغلبت سائر اللغات في مواطنها الاصلية فجرت ذيل العفاء على السريانية والقبطية واليونانية والebraية والفارسية وغيرها^٤ . وكان النصراني في تلك الايام دائبين على المشاحات في العقائد الدينية متشاغلين بالمماحكات في المنازع السياسية متهاكين في تقويض بنيان ممالكهم بالدسائس الداخلة والفتن الاهلية وقد اتخذ ملوك الروم قاعدة سياستهم " فرق فتملك " فساد الظلم ووقع الحيف واستبد القوي بالضعيف وتشتت الجمع وانقسموا فرقا تمكنت منها اسباب العداوة

(1) Charles Martel

(2) Poitier

(3) Atlantique

(4) V. l'histoire générale

وكلُّ فرقةٍ قويت انتقلت من الأخرى ونكلت بها تنكيلاً ولذلك
أضطرَّ كلُّ من جرى في عروقه دم الشرف والحريّة إلى أن يغادر
موطنه ويهاجر إلى حيث يرى له مأمناً ومرئياً فكان العلماء
والحكّماء أول من اتخذ هذا السبيل وهم حياة الأمة فقصدوا
بلاد الأكَسرة وغيرها من الأطراف الشاسعة هرباً من ظلم
مضطهديهم وهرب كثير من علماء مدينة الإسكندرية إلى اللاذقية
وغیرها من مدن سوريا

وكان النساطرة ممن ذاقوا البلاء من الروم اذیّ وشدةً
فلجأوا إلى ظلّ الأكَسرة في العجم حيث أسسوا في مدينة
الرها مدرسةً ثم أنشئوا في مدينة جنديسابور مدرسة
ومارستاناً واشتغل اساتذتها بترجمة كتب اليونان إلى السريانية
فتمهد للعرب بذلك سبيل طلب العلم

ولم تحفل الدولة الأموية في الشرق بعلم الطب والحكمة
لتشاغلها بالفتوحات وتوطيد قواعد الملك . وأول أطباء العرب
الحارث بن كلدة أخذ الطب عن اساتذة مدرسة جنديسابور
وطبّ بحضرة النبي وتوفي في بداية خلافة عثمان . وذكر الشيرازيُّ
الأخنف بن قيس بن معاوية بن حصن السعدي التميمي البصري

1 Laboulbène; la médecine chez les Arabes;
Sédillot.; histoire générale des Arabes

توفي سنة تسع وستين من الهجرة . وذكر بعضهم عبد الملك بن
ابهر الكندي وكان طبيباً عربياً نصرانياً من حكماء مدرسة
الاسكندرية اسلم في ايام عبد العزيز بن مروان حاكم مصر
سنة ٧٠ من الهجرة (٦٨٩ م) ويوحنا أويجي المعروف عند
السريان بالنجوي (غراماطيقوس) كان يعقوبياً من حكماء
الاسكندرية . وفد على عمرو بن العاص وقد عرف مكانه من
العالم فآكرمه وقرببه . وكان سجد الدولة العربية في احياء موات
العالم ونشر صناعة الطب بقي مرتباً الى ان تبوأ بنو العباس
عرش الخلافة وجعلوا بغداد عاصمة المملكة الاسلامية . او كان
الدولة العباسية آلت لتنهضن بهذه الامة الى ذروة المجد فلم
تجد مرقاة لها افضل من العلم . فمذ اختط الخليفة المنصور مدينة
بغداد سنة ٧٦٢ م ترك جرجس بن جبريل من ابناء ينجتيشوع
مدرسة جنديسابور واقام في بغداد وكان طبيب الخليفة وتوفي
في ايامه وكان له خبرة بتصوير العال والعلاج فقط وهو
الذي مهد الطريق لذويه بالخطوى لدى الخلفاء ورجال الدولة
وبني هرون الرشيد المدارس وبيوت المرضى والصيدليات واباح
الانتفاع بها للعموم . وكان طبيبه جبريل بن عبدالله بن ينجتيشوع
وكان مكرماً لديه حظياً عنده وفي ايامه ترجمت كتب الحكمة

والطب من السريانية واليونانية والهندية الى العربية . وعهد
اليه الخليفة بخص الاطباء في مدينة بغداد ومنع من لم يكن
كفوياً لزاولة هذه الصناعة . صنف الكناش الصغير للصاحب
بن عباد فاجازهُ بالف دينار . وانشأ المأمون ندوةً علميةً جمع
اليها العلماء من كل صوبٍ وحَدَّبَ وبذل من الاموال ما
لا يتدَّر لمشتري الكتب وترجمتها الى اللغة العربية فكانت
بغداد حينئذٍ عروس الدنيا ودار العلوم وعروسة الادب
قيل ان العلماء والمدرسين فيها واعضاء ندوتها العلمية بلغوا لذلك
العهد ستة آلاف عدداً . فتأمل

ومن مشاهير النساطرة الذين كانت لهم يدٌ بالترجمة الى
العربية ابناءً ماسويه منهم يوحنا صاحب النظم الحاذق والملاج
الحارق والبراعة التامة برع في عدة علوم وكان من بطانة هرون
الرشيد . اشتغل بتدريس علم الطب في مدرسة بغداد والف
كاتباً كثيرة وتوفي سنة ٣٤٣ هـ . وكان تلميذهُ حنين بن اسحق المولود
في الحيرة من مشاهير المترجمين في القرن التاسع ثم صار
طبيب المتوكل ومما يؤثر عنه ان المتوكل اراد امتحانه ليعرف
مكانه من صدق الخدمة فخلع عليه واقطعه بما يساوي خمسين
الف درهم ثم طلب منه ان يصف له دواءً يقتل به عدواً له لا

يجب ذكر اسمه فاجابه حنين يعقوبي امير المؤمنين فاني لم اتعلم
غير الادوية النافعة ولم يخطر ببالي انه يطلب مني خلافها
ولما لم يظفر منه بطائل اخافه وتهدده ثم ارسله الى السجن في
بعض القلاع وثركة مدة وبعد ذلك احضره واعاد عليه الطالب
فاصر على امتناعه . فأمر الخليفة باحضار سيف ونطع وقال تفعلك
ان لم تفعل . فقال حنين ان لي رباً يأخذ بجفتي غداً في الموقف
الرهيب . فتبسم المتوكل وقال له طلب نفسك فانا انما اردنا امتحانك
والثقة اليك . فقبل حنين الارض وشكر . وبعد ان هدا روعه
سأله الخليفة ما الذي منعتك من الاجابة مع ما رأيت من
صدق الامر منا في الحالين . فقال شيمان ,, الدين والصناعة ,,
اما الدين فانه يأمرنا باصطناع المعروف حتى الى اعدائنا واما
الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصودة على معالجتهم
ومع هذا فقد جعل في رقاب الاطباء عهد مؤكداً بايمان مغلظة
ألا يعطوا احداً دواءً قتالاً او مضرًا فقال الخليفة انها شرعان
جايلان وانعم عليه فحمل انعامه وخرج وهو احسن الناس حالاً
وانعمهم بالأ . واشتغل حنين بالترجمة فترجم كتب بقراط وجالينوس

(١) خطاب للمؤلف القاه في ختام سنة ١٨٨٩ للمدرسة الكلية

السورية - الوافي للمرحوم امين الشميل -

Sédillot; histoire générale des arabes; tome II, page 75

واقلاطون وبطليموس وبولس الايجيني وكان ابناه اسحق وداود مترجمين ايضاً . وذكر الشيرازي اسحق ولم يذكر حنيناً . قال نقلاً عن ابن خلكان " اسحق بن حنين العبادي الاسرائيلي الحميري اشتغل على ابن ماسويه وكان متقناً للطب والعربية واليونانية عرب كثيراً من كتبها وكان كثير الاعتناء بكتب ارسطو وجالينوس توفي سنة ٣٦٨ هـ . " . وامتاز ابن اخته حبيش بضبط الترجمة والنقل والفت كتاباً في الطب . وكثر مترجموا الكتب عند الخلفاء العباسيين ومن اشتهر منهم حجاج بن مطر ترجم الجسطي تأليف بطليموس في علم التنجيم ومقالات اقليدس في الرياضيات وبعض مصنفات ارسطو . وكثر الاطباء من الهنود والفرس واليهود والنصارى عند الخلفاء منهم صالح بن بهلة وعبدوس بن زيد وموسى بن اسرائيل الكوفي وابناء الطيفوري وزين الطبري اليهودي وقسطا بن لوقا من بعلبك وابو زكريا يحيى بن ماسويه وابو زيد حنين بن اسحق بن سليمان بن ايوب العبادي الشهير بالترجمة ولد سنة ١٩٢ هـ (سنة ٨٠٩ م) وثابت بن قرة الصابي من حران اشتغل مع قسطا بن لوقا بترجمة كتب جالينوس وغيرها من كتب الطب والرياضيات والتنجيم وفيه يقول السري

الرفاء احمد شعراء سيف الدولة بن خندان
 هل لاهليل سوى ابن قرّة شافٍ بعد الاله وهل له من كافٍ
 احب لنا رسم الفلاسفة الذي اودى واوضح رسم طبّ عافٍ
 فكانه عيسى بن مسيمٍ ناطقاً يهب الحياة بايسر الاطافٍ
 مثلت له قارورتي فرأى بها ما اكنن بين جوافحي وشفائي
 يبدو له الداء الخفي كما بدا للمين رضاض الغدير الصافي
 ومنهم يوحنا بن سرايون المعروف بيوحنا الدمشقي بالنسبة
 الى دمشق وهو مؤلف الكناش كنبه بالسريانية وترجم الى العربية
 ثم ترجم الى اللاتينية وله تصانيف كثيرة أكثر الرازي عنه
 النقل . ومن مشاهيرهم في ذلك العصر ابو يوسف يعقوب بن اسحق
 الكندي كان من بطانة المأمون ثم اتصل بالمعتصم وهو من ابناء
 الملوك وكان فيلسوفاً بارعاً في علوم اليونان والعجم والهند . الف
 كتباً كثيرة ونقل عن فلاسفة اليونان ولاسيا عن ارسطو^٢

(١) يتيمه الدهر للشمالي

(٢) ذكر صاحب عيون الانباء في طبقات الاطباء وغيره
 اسماء كثيرين من نقلة العلوم والمترجمين الى اللغة العربية من يونان
 وبعاقبه وسريان ونساطرة ويهود وهنود فاقصرتنا على ذكر بعضهم
 من اشار اليهم علماء الاقربنج اثباتاً لما نحن في صدره

فما تقدم يتضح ان العلوم ولا سيما علم الطب لاح نورها في مدرسة جنديسابور من بلاد العجم ثم اشرق في بغداد بعد ان خبا في بلاد اليونان وانطفاً في مدينة الاسكندرية. وان الصلة بين اللغة اليونانية واللغة العربية كانت اللغة السريانية في بدء الامر . وان نقلة علوم الحكمة والطب كانوا من النساطرة واليعاقبة غالباً واليهود والصابئة احياناً . وان الكتب التي وضعت باللغة العربية حتى القرن التاسع لم تكن الا مترجمة عن اليونانية غالباً . وان الفضل في احياء هذه هذه العلوم ونشرها يرجع للخلفاء العباسيين ولا سيما الرشيد والمأمون اللذين ظهرت عنايتهما بترجمة الكتب وجمع العلماء وانشاء دور العلم وبيوت المرضى في بغداد كما فعل البطالسة في الاسكندرية من قبل

نبذة ثانية

في حكماء العرب في الشرق

وبعد القرن التاسع ظهرت فلاسفة العرب الذين ألفوا في الطب الكتب النفيسة وهي الكتب التي اتخذت دستوراً جرى عليه العلماء عموماً في مراوطة صناعة الطب مدة اثني عشر قرناً . ولا يسعنا المقام ان نذكرهم كلهم فنجزئياً بذكر تراجم الذين امتازوا

بينهم ولا سيما الذين اخذ عنهم الاربويون وترجموا مصنفاتهم الى لغاتهم . فمنهم الامام ابوبكر محمد بن زكريا الرازي الملقب بجالينوس العصر^١ ولد ونشأ في الري وبرع في علم الادب والفنون منذ كان صغيراً وكان كثير الوله بالموسيقى والنظم ثم جاء بغداد وزار بيارسنانها فرغب في الفلسفة والطب فبرع فيهما حتى بلغ الغاية وصار اشهر اساتذة مدرسة بغداد . وكان زكياً حافظاً باراً بالناس زوفاً بالمرضى كثير العناية بالفقراء . صنف كتباً كثيرة منها كتاب الاقطاب في ثلاثين مجلداً والحاوي في خمسة عشر مجلداً وقد حكي فيه عن عجائب في معالجته تدل على براعته وترجم هذا المصنف الى اللغات الاوروبية وطبع على اثر اختراع آلة الطباعة في مدينة البندقية في ١٧ مجلداً . قال كوفيائي^٢ " ان هذا الكتاب يشتمل على الدروس التي املاها الرازي على تلامذته في مدرسة بغداد وقد اضاف اليها بعضهم فصولاً بعد موته " وكان رئيس اطباء بيارستان بغداد والري وجنديسابور معاً . وألف في الكيمياء اثني عشر كتاباً وألف كتباً كثيرة في التشریح و منافع الاعضاء وغير ذلك . ومن مصنفاته المنصوري في عشرة مجلدات ذكر في آخره الصفات التي

(1) V. la Revue scientifique, tome XXXII de la collection P. 647

يجب على الطبيب ان يكون حاصلًا عليها والقوانين التي يجب عليه السلوك بموجبها ونُدِّد بالمخترقين بصناعة الطب كما فعل بقراط وجالينوس من قبل . وهذا الكتاب بلغ من الشهرة في اوربا في القرون الوسطى ما لم يبلغه كتاب آخر حتى ان الملك لويس الحادي عشر امر بان لا يعتمد الا عليه في تدريس علم الطب في مدرسة باريس وسماه بالمنصوري لانه جعله مقدمةً الى منصور بن نوح الساماني امير خراسان حفيد الخليفة المعتمد . ومن بديع مصنفاته رسالة في وصف الجدري والحصبة عني بطبعها في بيروت الاسناد الطيب الذكر العلامة كرنيلوس فانديك . قيل ان الرازي اصيب في شيخوخته بالماء الازرق فجاءه جراح ليقده عينه فسأله كم هي طبقات العين ورطوباتها فلم يجز جواباً فقال خير لي ان ابقى اعشى من ان يقده عيني جاهل . وصرفه . توفي سنة ٩٣٢ م (٥٣١١ هـ)

ومن كلامه " الحكيم برأيه متلف " ومنه " يجب على

(١) وقيل ان الملك لويس الحادي عشر طلب الكتاب المذكور

من مدرسة باريس الكلية بضمانة باهظة ليأخذ عنه نسخة

Edouard Forestiè; LaRevue scientifique, tome XXXIV de la collection - 1885, P.87

(٢) نقلا عن شرح ارجوزة الشيخ الرئيس

الطبيب ان يوهم العليل بالصحة وان كان غير واثق بها " - وقال
 " الاطباء الاحداث الذين لا تجربة لهم قالون " - وقال " يجب
 على المريض ان يقتصر على طبيب يثق به فخطأه في جنب صوابه
 يسير لان من استعمل اطباء كثيرين وقع في خطأ الجميع " -
 وقال " اذا استطاع الطبيب ان يعالج المرضى بالاغذية دون الادوية
 فقد وافقت السعادة " - وقال " اذا كان الطبيب حاذقاً
 والصيدلي صادقاً والمريض موافقاً فما اقل لبث العلة " -
 وجاء بعد الرازي علي بن العباس الجوسي الاهوازي المعروف
 بالملكي تلميذ ابي ماهر وكان بعد الرازي بنحو ٥٠ سنة وهو مثله
 عجمي صنف كتاب كامل الصناعة امضد الدولة بن بويه
 الديلمي في ٢٠ مجلداً تحدي به جالينوس وكان اماماً بالعلم والعمل
 قال بعضهم علم القانون وعلاج الملوك لم يسبق اليهما وبعضهم
 يفضله عن ابن سينا . ترجم مصنفه الى اللاتينية وطبع سنة
 ١٤٩٢ م . وما يؤثر عنه قوله " يجب على الاطباء الاحداث
 ان يتقنوا على العمل في المارستان لانني استفدت كثيراً بما
 تحريته من التجارب فيه " . ونبغ ابن سينا في القرن العاشر
 وكان من تلامذة مدرسة بغداد وهو ابو علي الحسين بن عبد الله
 بن الحسين بن علي بن سينا ويعرف بالشيخ الرئيس ولد في بخارا

سنة ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م . وتوفي بالاسهال في همدان سنة ٤٢٨ هـ
- ١٠٣٦ م كان فيلسوف الزمان . برع في الطب والفلسفة
والطبيعيات والمنطق والرياضيات والفقه واتقن اقليدس والمجسطي
وفاق في علم الطب اهل زمانه ثم اتصل بخدمة نوح بن
منصور الساماني وسأله ان يكتنه من الدخول الى خزانه
كتبه فاذن له فرأى فيها شيئاً من كتب الاوائل لم يكن
في ايدي الناس فحصل منها على فوائد كثيرة وفي رواية انه
احتمل في حرق مكتبة بخارا ليتفرد بمصنفاته وهذه الرواية
لم تثبت . وتقلد الوزارة لشمس الدولة . ومؤلفاته كثيرة في جميع
العلوم والفنون منها كتاب الشفاء وكتاب الواحق وكتاب
الحاصل والمحصول نحو من ٢٠ مجلداً وكتاب البرء الاثم
مجلدان وكتاب الانصاف جمع فيه كتب ارسطو في ٢٠
مجلداً وكتاب لسان العرب في اللغة قال بعضهم لم يؤلف
في اللغة مثله وكتاب المبدأ والمعاد وكتاب الاشارات وكتاب
التنبيهات وكتاب الحدود وكتاب عيون الحكمة والموجز في
المنطق وكتاب تقاسيم العلوم والحكمة وله المدخل الى علم الموسيقى
ومقالة في الاجرام العلوية ومقالة في الرصد وكتاب تدبير النفس
وشرح كتاب النفس لارسطو وكتاب الملح في النحو ورسالة في

الزهد وفضيلته على انه لم يكن زاهداً كما يعلم من تاريخ حياته ويحكى ان صاحباً له لامة على اسرافه على نفسه فاجابه اني احب الدنيا قصيرة عريضة ولا احبها طويلة ضيقة . وله كتاب تمبير الرؤيا وله رسالة في الكيمياء ورسالة في التضاء والقدر ورسالة في مخارج الحروف وله كتاب القوانج وكتاب الادوية القلبية ورسالة في خط الاستواء ومقالة في حد الجسم وغير ذلك في الاصول والفروع وفي علم الحديث وله نظم رائق منه قوله عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب لان السقم اكثر ما تراه يكون من الطعام او الشراب وله في النفس قصيدة بديمة شرحها بعض العلماء قال في مطالعها

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تبرز وتمنع
وله الارجوزة المشهورة في علم الطب وعمله قال فيها
الامام مروان بن زهرانها محيطة بجميع كليات الطب وانها افضل
من كتب كثيرة وقد شرحها كثير من العلماء منهم الفيلسوف
ابن رشد والعلامة الشيرازي . واحسن كتاب ألفه القانون وهو
مشهور بقي ستة قرون ممولاً عليه في علم الطب وعمله حتى عند
الاروبيين الذين ترجموه الى لغاتهم وكانوا يتعلمونه في مدارسهم وطبعوه

سنة ١٤٧٦ وذلك بعد اختراع آلة الطباعة بنحو ٣٠ سنة
وإذا عرفت ما تقدم لم تستغرب قولهم " كان الطب معدوماً
فأوجده بقراط وكان ميتاً فاحياه جالينوس وكان متفرقاً فجمعه
الرازي وكان ناقصاً فكمله ابن سينا "

ومن فلاسفة العرب لذلك العهد الفارابي وهو محمد بن
محمد بن اوزلغ بن طرخان من فاراب مدينة من مدن الترك
صاحب النصائيف في المنطق والموسيقى اخذ عنه الرئيس ابن
سينا . طاف البلاد وقال اني لاعرف أكثر من سبعين لساناً
وتوفي في دمشق سنة ٣٣٩ هـ . ومنهم ابن ابي صادق عبد الرحمن
بن علي النيسابوري برع في العلوم الحكيمية وكان من تلامذة
الرئيس ابن سينا . توفي سنة ٤٥٩ هـ . ومنهم الامام الاستاذ
موفق الدين ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي
البغدادي عرف بابن اللباد وكان جالينوس الزمان وبقراط
الوقت برع في اللغة العربية والفلسفة واصول الطب وفروعه
وكان كثير العناية بكتب ارسطو صنف مائة وثمانين مصنفاً
ورد علي ابن سينا رداً شنيعاً حيث صنف في علم الكيمياء
توفي سنة ٦٢٦ هـ . ١٢٣٠ م . ومنهم ابن نفيس علي ابن
ابي الحزم القرشي شيخ الاطباء في عصره وامامهم برع في

الطب وكان يعلّي ويدرس ويصنف في المجلس الواحد وجميع
مصنفاته من حفظه . صنف كتاب الشامل ويض منه نحو
١٠٠ مجلد وصنف المذهب في صناعة الكحل (امراض العيون)
ولم يسبق الي منه توفي سنة ١٢٨٧ . ومنهم ابو الفرج يعقوب
بن اسحق القف من نصارى الكرك كان حكيماً رياضياً برع في
الطب واشتهر بالجراحة وخدم في قلعة عجلون ثم في قلعة دمشق
ومن مصنفاته كتاب الشافي في الطب وكتاب شرح كليات قانون
ابن سينا في ٦ مجلدات وكتاب شرح فصول بقراط مجلدان وهو
كافٍ للدلالة على براعته ودقة بحثه وسعة اطلاعه وصحة نقده
ومن مصنفاته كتاب العمدة في صناعة الجراح ٢٠ مقالة
ذكر فيه جميع ما يحتاج اليه الجراح وله مؤلفات أخرى
توفي ١٢٨٤ . ومنهم ابن ابي اصبحة صاحب عيون الانباء
في تاريخ الاطباء ولد في دمشق سنة ١٢٠٣ وتوفي فيها سنة
١٢٦٩ م . واشتهر في ذلك القرن علي بن عمر وكان كحالاً
منشأه مصر وكانت امراض العيون فيها كثيرة كما هي الآن
ومن مشاهير علماء اليهود الميوني وكان ميالاً الى الفلسفة اكثر
من الطب جاء من اسبانيا الى مصر وتوفي سنة ١٢٠٤ م . والف
كتبه باللغة العربية

وفي تلك القرون سُحبت مصابيح الحكمة من مدينة بغداد الى سائر المدن الاسلامية فلم تخلُ مدينة من مدرسة للطب ومارستان لتطبيب المرضى ومكتبة او مكاتب تشتمل على الوف الاولف من الكتب الجميلة في جميع العلوم والفنون . ولو شئنا استقصاء ما ذكره المؤرخون عن بناء المدارس وبيوت المرضى والمكاتب لظال بنا المجال فنقتصر على ذكر شيء من ذلك للدلالة على ما كان عليه ملوك الاسلام من العناية بالامه والنظر في مصالحها وسعادتها وما ادى اليه الاهمال من ضياع هذه الكنوز النفيسة ليمتد من ألقى السمع وهو شهيد . فقد ذكروا ان نور الدين بن الشهيد اسر بعض ملوك الافرنج وقصد قتله ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع وخمماية الف دينار انقها نور الدين كلها على عمار مارستانه في دمشق . وحدث ان الملك المنصور لما توجه وهو امير الى غزاة الروم في ايام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥هـ اصابه بدمشق قولنج عظيم فعاوجه اطباء بادوية اخذت من مارستان نور الدين الشهيد فبراً وركب حتى شاهد المارستان فاعجب به ونذر ان اتاه الله الملك ان يبني مارستاناً فامسا تساطن بني مارستانه الكبير المعروف بالمنصوري بخط بيت القهسرين من القاهرة افرد لكل طائفة من المرضى موضعاً

فيه فجل اووين المارستان الاربعة للمرضى بالحميات ونحوها
 وافرد قاعة للرمدي وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة
 للنساء ومكاناً للمبرودين ينقسم الى قسمين قسم للرجال وقسم
 للنساء وجعل الماء يجري في جميع هذه الاماكن وافرد مكاناً
 لطبخ الطعام والاشربة والادوية ومكاناً لترتيب المعاجين
 والاكحال والشيافات ومكاناً يجلس فيه رئيس الاطباء
 لالقاء درس الطب . وجعله سبيلاً لكل من يرد عليه من
 غني وفقير . اما المارستان المتيق فقد بناه صلاح الدين يرسف
 بن ايوب واستخدم له اطباء وطباطميين وجراحين وخداماً ووجد
 الناس به رفقاً واليه مستروحاً وبه نفماً وكذلك بمصر امر بفتح
 مارستانها القديم . واول مارستان بني في مصر بعد الفتح انشاء
 احمد بن طولون وانفق على بنائه ستين الف دينار واذا كان
 كافور الاخشيدي بني مارستاناً في القاهرة فباي عين ينظر الآن
 امرأوتنا وكبرأوتنا مارستانات الافرنج تبني في ديارهم ولا يحزنون
 وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاح

نبذة ثالثة

في الطب العربي في المغرب

ولم يكن الشرق وخذهُ مطاع شمس المعارف والحكمة
ومجلى انوار فلاسفة العرب فقد كان للغرب من ذلك الحظ
الافور على عهد الخلفاء الامويين وقد انشأ الحكم بن هشام في
قرطبة ندوة علمية كان العلماء ينقاطرون اليها من جميع الامصار
كما كانوا ينقاطرون الى الندوة العلمية التي انشأها المأمون
في بغداد وارسل الوفود الى جميع الجهات لشترى الكتب
ونسختها فجمع مكتبة كانت في القرن العاشر تاجاً على مفرق
الغرب وسعت ستمائة الف مجلد وكان برنامجها في ٤٤ مجلداً
وقال بعضهم^١ انها كانت تشتمل على ٢٨٤٠٠٠ وهو مقدار
يرى المتأمل فيه عظمة الدولة العربية في الاندلس وشدة
عنايتها برفع منار العلم اذ لم تكن الطباعة معروفة وطريقة
استعمال الكتب لم تكن سهلة كما في هذه الايام . ومما امتازت
به قرطبة ايضاً مدرستها الجامعة التي كان يأمها طلاب الحكمة
من جميع الامصار وقد تعلم فيها بعض عظماء الافرنج في زمن

(1) Laboulbène. V. la revue scientifique;
tome XXXII

جاهليتهم ولما ذاقوا لذة العلم وتبينوا منافعه دُفعوا الى الاقتداء
بالعرب. وانشأ فيها محمد بن علي حديقة غناءً لاجل درس علم
النبات. ومما قيل في وصف قرطبة

باربعٍ فاقتِ الاقطارَ قرطبةً وهنَّ قنطرةُ الوادي وجانِها
هاتانِ ثنَّانِ والزهرَاءُ ثالثةُ والعلمُ افضلُ شيءٍ وهو رابعها

ومما يدلُّ على رواج بضاعة العلم عند العرب في الاندلس
كثرة المدارس الطبية فيها فقد أنشئ في اشبيلية مدرسة
كبيرة نبغ فيها كثيرٌ من مشاهير الحكماء وكان في طليطلة
مدرسة اخرى للطب توهج فيها نور الحكمة وفي مدينة مرسية
مدرسة ثالثة لا تقلُّ سماءً عن غيرها من تلك المدارس الزاهرة
وقد امتاز الاندلسيون بالتألق في الحضارة والمدنية كما امتاز
علماءهم بالتدقيق في المباحث الفلسفية واستنباط كثيرٍ من المبادئ
التي بنيت عليها المكتشفات العلمية التي هي من مفاخر هذا
العصر ولا ابالغ اذا قلت ان مبدأ مذهب درون في
التحويل والارتقاء مأخوذ عن العرب ولدي مصنف محمد بن احمد الوراق
المعروف "بالكتبي" في علم الطبائع فيما قاله في الكلام على طبائع
القرود "هذا الحيوان عند المتكلمين في الطبائع مركبٌ من
انسان وبهيمة وهو من تدرج الطبيعة من البهيمة الى الانسان

(كذا) وهو يحاكي الانسان بصورته وافعاله " اه
 بحروفه ونحن نرى درون يدعي بان جدّه جراسيموس اول
 من قال ببدا التحول في الحيوانات منكرًا على لمرّك الفرنسي فضل
 الاسبقية وانما الفضل للكتبي الذي اوضح هذه الحقيقة
 بصريح العبارة قبل ان يوجد لمرّك وجراسيموس ودرون بقرون .
 ومن تأمل في كلام عبدالله البكري صاحب كتاب مسالك
 الابصار في مالّك الامصار يتعجب كيف حوّم بصيرته على
 الآراء الشائعة الآن بعد ان كشف العلامة بستور بتجاربه البديعة
 مبادئ الفساد والتعفن وأوضح حقيقة تولد الجراثيم الوبيلة ومنفعة
 التلقيح . قال في الكتاب الثاني عشر من مؤلفه المشار
 اليه في الكلام على الهوام والحشرات ما نصه " اذا أوقدت
 نارًا في وسط غيضة ل ترى ما يغشى النار من الحشرات
 بدت لك صورٌ عجيبة واشكالٌ غريبة . على ان الخلق
 الذي يغشى النار يختلف باختلاف المواضع من الفياض
 والجبال والسهول والبراري فان في كل بقعة من هذه
 البقاع اشكالاً من المخلوقات مخالفة لما في البقعة الاخرى

(1) V. notice historique sur l'origine des espèces
 par Charles Darwin

وقد خلقت هذه الحشرات من المواد الفاسدة والعفونات الكائنة ليصفو الجو منها ولا يعرض له الفساد الذي هو سبب الوباء وهلاك الحيوان والنبات . والذي يحقق ذلك اننا نرى الذباب والديدان في دكان القصاب والدياس ولانراها في دكان البراز والحداد فهي تنصُ العفونات وتغذى بها فيصفو الهواء منها ويسلم من الوباء (كذا) وجعل صغارها مأكولاً لكبارها والآلات ملأت وجه الارض منها " الى ان قال " واعجب ما في هذا النوع ان كل ما جعل سبباً لضرر حيوانٍ جعل لحمه دفعةً لذلك الضرر فان الاطباء الاقدمين وجدوا في لحم الحية قوةً تقاوم السموم فأدخلوا لحمها في الترياق . والتجربة دلت على ان من لذغته العقرب يقتلها ويظلي موضع اللدغ برطوبة بدننها فان الالم يسكن في الحال " والكتاب المذكور يشتمل على كثير من صور النباتات بالوانها الطبيعية فهو من الآثار القديمة الباقية الى الآن للدلالة على فضل العرب ويظهر ان مؤلفه متأخر عن ابن البيطار العشاب لانه يعتمد عليه كثيراً في النقل اما سائر اجزاء الكتاب فلم اهتمد حتى الآن اليها

ومن فلاسفة العرب في الاندلس ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المروفي سنة ١٠١٣ وهو اول طبيب طبعت مؤلفاته

مترجمةً الى اللاتينية في مدينة البندقية . ألف كتاب التصريف في ٣٠ مجلدًا وقد مدح العلامة هار مؤلفه المذكور ولا سيما الكتاب الاول منه في المادة الطبية لانه لم يتحد غيره بالمثل بل اعتمد على نفسه في تحري الحقائق وله كتاب القياس والتجربة وهذا الكتاب من ابداع كتب الطب القديم يشتمل القسم الذي يبحث فيه عن الجراحة على صور الكسور والحلج والآلات الجراحية

ومنهم ابن وافد ابو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد اللخمي من طليطلة برع في الطب والفلسفة وكان مولمًا بدرس مصنفات ارسطو وجالينوس وكان يعول في العلاج على الادوية البسيطة وله مؤلفات كثيرة ضمنها مقالات ديسقوريدس وجالينوس توفي سنة ١٠٧٤

وكان في الاندلس ابناء زهر بمثابة ابناء بنخيشوع وحنين وماسويه في بغداد واشهرهم ابو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي الاشبيلي صاحب كتاب التيسير اخذ الطب عن ابيه وجده وكان يتحدى جالينوس الا انه كثيرا ما عتب عليه ورد على ما ترى له من مظان الشبهات فيه . كان حاذقًا محققًا مدققًا ذا منزلة رفيعة ويظن انه لم يطبب كسائر اطباء زمانه ولكنه كان يستشار في الامور المهمة . ومن حكاياتهم

عنه ان المهدي لما اخذ بلاد المغرب قرَّبه وأكرمه واتحفه بالعطايا
 وبما عمل له أنه اخذ ادويةً مسهلةً تقعبها وسقى بمائها كرمةً فحملت
 عنياً فاحمى الخليفة واطماه عنقوداً منها فأكل منها عشر
 حبات فقال له يكفيك تقوم عشرة مجالس لانك اكلت عشر
 حبات فكان كما قال فترايدت قيمته عنده وعطاياه * قال
 الشيرازي وفي زمانه وصل القانون الى المغرب فلم يعجبه وصار
 يقطعه ويصرُّ به الادوية . وهو اسناذ ابن رشد توفي وعمره
 ٩٢ سنة في اشبيلية سنة ٥٩٥ هـ - ١١٦٢ م

وكان ابن رشد يؤثر الفلسفة على الطب وهو الامام ابو
 الوليد محمد بن محمد القرطبي كان ابوه قاضي قضاة الاندلس
 فراه على حب الفضيلة والعلم فبرع في الفقه وفي الحديث وفي
 الجدل وفي معرفة مذاهب المتقدمين ودرس الرياضات والطبيعات
 والطب ثم صار مدرساً للفلسفة والفقه والطب في مدرسة قرطبة
 وكان أبا النفس عيوقاً للمحاربة عرض مرةً بالخليفة فخرمه
 من مخالطة الناس الا اليهود ورمى بالزندقة فحجرت املكه
 وهاج الشعب عليه فهرب الى قاس ولكنه ضبط فيها واُكروا على

الوقوف صاغراً باب الجامع ليصق المارون عليه ثم عاد الى قرطبة يجرُّ ذيل الشقاء وبعد ذلك دعاهُ يعقوب المنصور سلطان سراكش فحسنت حاله واستردَّ ما فقدته^١ وتوفي سنة ٥٩٩ هـ - ١١٩٨ م الف كتباً كثيرة منها كتاب الكليات في عدة مجلدات شرح بهِ فلسفة ارسطو وله شرح ارجوزة ابن سينا

وأخر جهاذة الطب في الاندلس الامام المدقق ابو محمد عبد الله بن صالح المعروف بابن البيطار وُلد في مالقة في نهاية القرن الثاني عشر وسافر مشارق الارض ومغاربها ليرى النبات في موضعه ويتحقق صفاته بالعيان منكباً عن خطة التحدي والتقليد ومن طالع كتابه الجامع لمفردات الادوية والاذوية تبين ما كان عليه من ذكاء النفس وكثرة الحفظ وصحة النقد وسعة المعرفة لم يترك هفوةً اطالع عليها في كتب المتقدمين الا انه عليها توفي في دمشق سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٨٤ م

هؤلاء هم اشهر حكماء العرب الذين اهلوا الاوربيون بهداهم واقتنوا آثارهم ايام كان الجهل ضاربا اطنابهم وكانوا

(1) V. les médecins arabes; Revue scientifique tome XXXII de la collection P. 653

على حالة من الهمجية اقل ما قيل فيها انهم لم يكونوا يعرفون
 للقبص معنى حتى استعاروا اسمه من العربية كما استعروا منهم
 الآن اكثر اسماء ملابسنا كالبنطلون والبلطو فانقلبت الآية
 وكذلك الدهر بالناس قباب . ولا شك ان علة هذا الانقلاب
 غلبة الجهل وترك العلم على ما يشهد العميان وتثبت الآثار . فلم
 يكن يوجد منهم من يعرف القراءة والكتابة الا بعض الرهبان
 وكان الشيع الديني يمزقهم كل ممزق وكانت الخرافات والاضاليل
 والعبودية تعمي بصائرهم وكان الطبيب عندهم ساحرا دجالا
 يطارا والصيدلي حائكا عطارا والجراح حلاقا مهذرا . واول
 شعاع من نور العلم ضأت به آفاقهم انما انعكس عليهم من
 العرب مجاورينهم في الاندلس او مخالطينهم في حروبهم معهم
 ولا سيما الحروب الصليبية فتعلموا فلسفة ارسطو من مؤلفات ابن
 رشد وهندسة اقليدس من ترجمات الحجاج بن مطر واسحق
 بن حنين وثابت بن قرة والطب البقراطي من قانون ابن سينا
 ومصنفات الرازي والكيمياء من جابر بن حيان والنبات من ابن
 البيطار والرياضيات والطبيعات والتنجيم من ترجمه الجسطي
 ومصنفات العرب الكثيرة^١ التي لا يسعنا بيانها الآن . وكانت مدارس

(1) V. l'histoire générale des arabes par Sédillot

الاندلس ولاسيا قرطبة محط رحالهم في طلب العلم واول من علم في مدارسهم اساتذة تلقوا العلوم عن العرب كما يعلم من تاريخ مدرسة سارنا في ايطاليا وهي اقدم مدرسة في اروبا ولم يكن مسموحاً للنساء عندهم ان يتعلمن حتى القراءة البسيطة والكتابة وكان التعليم بوجه العموم موكولاً الى خدمة الدين وبقي كذلك في فرنسا الى بدآة القرن الماضي فلم يتقرر فيها نظام المعارف العمومية الا بعد الثورة التي ثل بها عرش الاستبداد وتحررت العقول من ربة الاستعباد . وهذه لغاتهم تشهد عليهم كما يشهد التاريخ وعقلاً و هم يقرُّون بان العرب كانوا اساتذتهم فلفظة الجبر *algebre* دليل على انهم اخذوا هذا العلم عن العرب والكيمياء *alchimie* تدل ايضاً على انهم اعتمدوا على المؤلفات العربية في هذا الفن بعد ان امر الامبراطور فردريك الثاني بترجمة الكتب العربية بعد الحروب الصليبية . والصفير *chiffre* دليل على انهم لم يكونوا يعرفون الارقام وهم حتى الآن يسمونها بالارقام العربية وصورها الافرنجية هي نفس الصور التي استعملها العرب قديماً واكثر الاسماء في علم الهيئة عربية كما منكوت *alancabuth* والديران *aldébaran* والطيور *alhair* والغول *alghol* والرجل *rigel* والسمت *semat* ثم تصرفوا بلفظها فقالوا *zénith* والنظير *nadir* وما

أخذوه عنهم في الملاحة اميرال *amiral* والاسطول *escadre*
 مأخوذة من الطلياني في القرن الخامس عشر وكان يلفظونها
eschiele وفي التشریح الصافن *safoene* وفي الكيمياء الانبيق
alambic والاكسير *elixir* والقلبي *alcali* وفي المواد الطبية
 الترياق *thériaque* والكحل *alcohol* والشراب
sirap والجلاب *julep* والرب *rob* واللعوق *looch*

(١) ويكتبه المترجمون الكوءول *alcool* وكانوا يكتبونه الكحول
Alcohol تبعاً للفرنسيين قبل ان قررت جميعه العلوم
 الفرنسية حذف الحرف *h* من هذه اللفظه وكفى بذلك دليلاً
 على ضياع هذه اللغة وامتها من ابناءها فيما حقتها ان تشرف به
 اما اصل اللفظة فقد اجمعوا على انها الكحل بمعنى الاعمى وانما خفى
 عليهم توجيهه معنى الاعمى لروح الحجر . قال ليتراى في معجمه الكبير
 انهما يلتقيان في معنى اللطافة والدقة واتيذكر اني سمعت من الدكتور
 فاندريك رحمه الله اذ كان يدرس الكيمياء في مدرسة بيروت الكلية
 زوايه لو صنع سندها الكالت هي الحقيقة بعينها قال « من فنون العرب
 في الاندلس استقطار روح الحجر واسرافهم باستعماله شراباً وقد
 عرفوا الاتيمون بخاصته السامة وانه من الكحل فكانوا اذا قصدوا
 اغتيال احد وضعوا الاتيمون في الشراب فاذا سئل عنه قالوا
 سقوه الكحل . يكون بذلك عن موته مسموماً وعليه اطلاق لفظه
 الكحل على المشروبات الروحية »

والبادزهر *bézoard* والترهندي *tamarin* والسنا
séné والنفا *naphte* والكمون *cumin* والانيسون
anis والكرويا *carvi* وغير ذلك مما يطول الكلام
عليه ولا غرابة في ذلك فهم انما تعلموا في مدارس العرب وتقاوا
كتب العرب الى لغاتهم وطبعوها قبل ان يعنونوا بطبع
غيرها من الكتب لانهم اعتمدوا عليها في التدريس والتعليم
ولا يخفى ان آلة الطباعة اخترعها يوحنا غوتنبرج سنة ١٤٤٥ م
واول كتاب طبع بها مترجماً الى اللغة اللاتينية هو كتاب
التصريف للامام ابي القاسم الزهراوي المتقدم ذكره وذلك
في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ م . ثم طبع قانون ابن سينا
سنة ١٤٧٦ م . وبعد ذلك طبعت مؤلفات الرازي سنة ١٤٨١ م
ثم كليات ابن رشد سنة ١٤٨٢ - ١٤٨٤ م . ثم طبع
تصنيف علي بن عباس الاهوازي المعروف بالملكي سنة ١٤٩٢ م
مع ان مصنف شلشيوس انما طبع سنة ١٤٧٨ م . ومصنفات

(١) تنبيه - قد ذكرت بعض الالفاظ المنقولة عن العربية الى
الفرنسوية بقطع النظر عن كونها عربية الاصل او معربة ولم اتصد
ليبان هذه الالفاظ في سائر اللغات لان اللغة الفرنسية اكثر
شيوعا يتنا

جالينوس طُبعت سنة ١٤٨٠ م وهي السنة التي طبعت فيها
مؤلفات الرازي . فتأمل

الفصل الرابع

في ماهية الطب القديم

قد تقدم (صفحة ١١٢) ان بقراط جرى في تحرير اصول
الطب على القياس والتجربة فهو اذا علم وعمل وعليه قول ابن
سينا في مقدمة ارجوزته المشهورة

الطب حفظ صحة بر مرض في بدن من سبب عنه عرض
قسمته الاولى لعلم وعمل والعلم في ثلاثة قد اكتمل
سبع طبيعات من الامور وستة وكماها ضروري
ثم ثلاث سُطرت في الكتب من مرض وعرض وسبب

وبناء عليه يكون علم الطب عندهم متوقفاً على معرفة الامور
الطبيعية السبعة والامور الضرورية الستة وعلى معرفة الامراض
واعراضها واسبابها . واما عمله فيراد به مزاولة صناعة العلاج
اِما بالجراحة واما بالدواء وتدير الغذاء وعليه قول الشيخ
الرئيس في ارجوزته المذكورة